ابن هشام و منهجه في مغني اللبيب

د. زيتون بيكم *
شكفته خانم*

إنّ اللغة العربيّة بمنزلتها الكريمة قد نالت بنحوها و صرفها وبيانها الكثير من اهتمام الدارسين ، ولذا نرى عبر القرون أن كثيرا من العلماء قد بذلوا جهودهم في دراسة قواعد اللغة العربية وقوانينها ومصطلحاتها ، ووضعوا كتبًا مختلفة فيها خدمة لهذه اللغة الخالدة. وابن هشام الأنصاري يعد من هؤلاء العلماء، فقد ترك كنزا هائلا وآثارا رائعة بارزة في الدراسات النحوية ، واشتهر في عصره بملكاته العقلية النادرة ، وإحاطته بآراء النحاة الذين سبقوه مع اختلاف مدارسهم ، وقدرته في معالجة تلك الآراء ، وانفراده ببعض الآراء النحوية ، وله في مؤلفاته النحوية منهج خاص يختلف عما سار عليه علماء النحو الآخرون.

مولده واسمه ونسبه: (١)

ولد النحوي الأجل ، الأديب ، اللغوي عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن احمد بن عبد الله بن هشام الانصاري المصري الخزرجي الحنبلي بالقاهرة يوم السبت الخامس من ذي القعدة سنة ٧٠٨هـ ، وهو الأرجح ، وقيل : إن مولده كان بعد سنة ٧١٠هـ.

لقبه وكنيته :

كان يلقب بجمال الدين ويكنى بابن هشام وهو المشهور ، وبأبي محمد ، اسم أكبر ولديه ، واشتهر بابن هشام النحوي.

حياته :

الطور الأول من حياته ، ونعني به عهد الطفولة والحداثة والنشأة والتربية في حجر أبويه ، وبين أعضاء أسرته ، لايزال سرا غامضا ، لم تتناوله كتب التراجم

* قسم اللغة العربية، الجامعة الاسلامية العالمية - اسلام آباد

والتاريخ ، ولم يجله الباحثون ، لأننا لا نعرف شيئا عن أسرته وطفولته أكثر من أنه نشأ نشأة علمية في أسرة عريقة في العلم والأدب والفضل. فذاع صيته في الآفاق علما يشار إليه بالبنان ، وعالما يعتمد عليه. قال عنه ابن خلدون: "مازلنا ونحن بالمغرب نسمع انه ظهر بمصر عالم بالعربيّة يقال له ابن هشام انحى من سيبويه".(٢)

صرح ابن حجر عنه : ولد (ابن هشام) في ذي القعدة سنة ٧٠٨هـ ولزم الشيخ شهاب الدين عبداللطيف بن المرحل ، وتلا على ابن السراج ، وسمع من أبي حيان ديوان زهير بن أبي سلمى ، ولم يلازمه ولا قرأ عليه . وحضر دروس الشيخ تاج الدين التبريزي ،وقرأ على الشيخ تاج الدين الفاكهاني جميع شرح الإشارة له إلا الورقة الأخيرة ، وتفقه للشافعي ثم تحنبل فحفظ مختصر الخرقي في دون أربعة أشهر وذلك قبل موته بخمس سنين ، وأتقن العربية ففاق الأقران بل الشيوخ وحدث عن ابن جماعة بالشاطبية وتخرج به جماعة من أهل مصر وغيرهم.(٣)

وفاته ومدفنه :

كما اتفق العلماء على تاريخ ميلاده ، اتفقوا على تاريخ وفاته . وتوفّي ابن هشام في ذي القعدة سنة ٧٦١هـ أي في الشهر الذي ولد فيه ، وذكر ابن حجرأنه توفي ليلة الجمعة خامس ذي القعدة في نفس العام.(٤)

وكتب صاحب "النجوم الزاهرة" في كتابه الساعة التي دفن فيها ، والقبر الذي دفن فيه فيقول : "إنه دفن بعد صلاة الجمعة بمقابر الصوفية خارج باب النصر من القاهرة.(٥)

ملامح شخصيتة :

كان لابن هشام رحمه الله حظًا وافرا من الفهم والذكاء. وكان متصفا بأوصاف حميدة ، فقد ذكر بعض كتب التاريخ والتراجم جوانب مهمة منها، أنه تمتع بالملكة التي مكنته من التعبير عن مقصوده بما يريد ، مسهبا وموجزا ، مع التواضع والبرّ والشفقة ودماثة الخلق ورقّة القلب.(٩)

كان ابن هشام رحمه الله كاتبًا كبيرا ، أديبا نابغة بليغا مجيدا ، وكان أعلم الناس بالنحو واللغة ، إماما متقدما فيهما ، وكانت له قدم راسخة في صناعة الكتابة وكان رجلا طموحا ، يجدّ و يصطبر للعلم ويبذل النفس في طلبه ، قال في ذلك:(٧)

و من يصطبر للعلم يظفر بنيله ومن يخطب الحسناء يصبر على البذل

ومن لم يذل النفس في طلب العلا يسيرا يعش دهرا طويلا أخا ذل

ثقافته :

"كان ابن هشام صاحب ثقافة واسعة ، أكسبته مكانة علمية مرموقة وشهرة فائقة ، جعلته يتربع على عرش علم النحو بلا منازع في ذلك الوقت".(٨)

وثقافته النحوية كانت أبرز صفة فيه ، فقد درس كتب النحويين السابقين دراسة تقوم على الدقة والبحث والمناقشة ، وكان له مع أصحابها نزاع وجدل يقوم على منهج عقلي منظم (٩). ولمكانته في النحو شاع ذكره وطار صيته في كل العالم الإسلامي، مما دعا ابن خلدون المؤرخ أن يقول عنه ما قدمناه آنفا.

وكان من ذكائه أنه حفظ "المختصر" للخرقي في أقل من أربعة أشهر، وأشار ابن حجر إلى ذلك حيث يقول: "وتصدر الشيخ جمال الدين لنفع الطالبين ، وانفرد بالفوائد الغريبة والمباحث الدقيقة ، والاستدراكات العجيبة ،والتحقيق البالغ والاطلاع المفرط والاقتدار على التصرف في الكلام , والملكة التي كان يتمكن بها من التعبير عن مقصوده بما يريد مسهبا موجزا ".(١٠)

وثقافته لا تنحصر في علم النحو فقط بل كانت ثقافته مزيجا من العلوم السائدة في عصره كما يتضح من مؤلفاته الرائعة. فقد درس المذهب الشافعي ثم الحنبلي ، وتلقى ديوان زهير بن أبي سلمي عن أبي حيان ، وأخذ القراءات عن ابن السراج وحدث بالشاطبية ، كما كان له باع طويل في الدراسات اللغوية.

أساتذته :

كانت القاهرة فى عصر ابن هشام مركز العلم , والعلماء ومنهل والأدباء. ومن عادة المتعلمين قديما الّا يتتلمذوا على يد أستاذ واحد , بل على عدد من الأساتذة والشيوخ ، ازديادا في استيعاب العلم وتنويع المعارف ، وطموحا إلى نيل الدرجات الرفيعة في العلم والأدب. (١١)

وقد تتلمذ ابن هشام على عدد من العلماء والشيوخ الذين يشار إليهم بالبنان وتسنموا أعلى مناصب العلم والتعليم في عصرهم ، ومنهم:

١. الشيخ شهاب الدين عبداللطيف بن المرحل المكنى بأبي الفرج بن عز الدين. كان فاضلا في النحو واللغة والمعاني والبيان والقراءات ، شديد التثبت في النقل. وقد لزمه ابن هشام واخذ عنه النحو فتأثر به ، وقد نوّه به بعد ذلك عرف بقدره ، وكان يطريه ويفضله على أبي حيان وغيره ، ويقول: "كان الاسم لأبي حيان ، والانتفاع بابن المرحل : توفي الشيخ في محرّم سنة ٧٤٤هـ.(١٢)

٢. الشيخ تاج الدين على بن عبدا لله بن أبي الحسن الأرديلي التبريزي , عالم كبير في عدّة علوم كالفقه ، والنحو ، والحساب والفرائض وغيرها. وقد حضر ابن هشام دروسه في المدرسة الحسامية" . وتوفي عام ٧٤٦هـ. (١٣)

٣. الشيخ عمر بن على بن سالم بن صدقة اللخمي الإسكندري تاج الدين الفاكهاني قرأ ابن هشام عليه جميع شرح "الإشارة" في النحو إلا الورقة الأخيرة توفي سنة ٧٣١. هـ (١٤)

٤. الشيخ أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان النفزي. والنفزي نسبة إلى نفزة بكسر النون وسكون الفاء : قبيلة من البربر ولد في شوال سنة ٦٥٤هـ. سمع ابن هشام منه ديوان زهير بن أبي سلمي ، ولم يلازمه وكان كثير المخالفة له ، شديد الانحراف عنه. (١٦) وتوفي في سنة ٧٤٥هـ . (١٧)

٥. محمد بن محمد بن عمير أبو عبد الله المصري المعروف بابن السراج الكاتب المجود، إمام مقرئ . ولد سنة ٦٦٨هـ. تصدر للإقراء بجامع الفاكهانيين بالقاهرة وانتفع به جماعة بالكتابة وآخرون بالقراءات [١٨].

٦. وقد أخذ عنه ابن هشام القراءات ، فتأثر بفهم أستاذه للنحو وبصدقه في النقل وبصحة القراءة والسماع. وتوفي سنة ٧٤٩هـ . [١٩]

٧. القاضي بدر الدين محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة بن حازم بن صخر بن عبدا لله الكناني الحموي الشافعي. ولد سنة ٦٣٩هـ. أخذ عنه ابن هشام علم الحديث وحدث عنه بالشاطبية.وتوفي في جمادى الأولى سنة ٧٣٣هـ.[٢٠]

تلاميذه:

تلاميذ ابن هشام يكثر تعدادهم ويطول ذكرهم الذين جلسوا في حلقاته ، وأفادوا من علمه ، وتأثروا ببحوثه ، وصارت لهم مكانة مرموقة في الدولة ، ووصلوا إلى أعلى المناصب في القضاء والتدريس . وأشهرهم :

١. إبراهيم بن محمد بن عبدالرحيم بن إبراهيم بن يحيى بن احمد اللخمي جمال الدين الأميوطي. "ولد سنة خمس عشر وسبعمائة من الهجرة ، وأخذ العربية عن ابن هشام النحوي ، ودرس وأفتى وناب في الحكم بالقاهرة ، واستوطن في مكة من سنة ست و سبعين وسبعمائة إلى أن مات في الثامن من رجب سنة تسعين وسبعمائة" . [٢١]

٢. إبراهيم بن محمد بن عثمان بن إسحاق الدجوي المصري النحوي. أخذ العربية عن ابن المرحل وابن هشام وغيرهما. توفي فى ربيع الأول سنة ٨٢٩هـ .[٢٢]

٣. عبدالخالق بن على بن الحسين بن الفرات المالكي. أخذ العربية عن ابن هشام..ودرس القضاء. وتوفي في جمادى الثانية سنة ٧٩٤هـ .[٢٣]

٤. القاضي جمال الدين أبو الفضل بن أحمد بن عبدالعزيز النويري ، نسبة إلى نويرة من بلاد مصر ، ولد في شعبان سنة ٧٢٢هـ .سمع بدمشق من المزي وغيره ...

وصار قاضي مكة وخطيبها ، وأخذ العربية عن ابن هشام قال عنه ابن حبيب : " إنه ولي قضاء مكة نيفا وعشرين سنة ، وتوفي سنة ٧٨٦هـ . [٣٤]

مؤلفاته :

مؤلفات ابن هشام تقرب إلى خمسين ، منها مطبوعة ومنها مخطوطة ومنها منشورة في المجلات. ويمكن لنا أن نقسم مؤلفاته إلى ثلاثه أقسام:

١) النحو والصرف ٢) اللغة والأدب

٣) الدين: ومعظم مؤلفاته في مجال الدراسية النحوية:

في مجال النحو والصرف:

١- الجامع الصغير في علم النحو. ٢- الإعراب عن قواعد الإعراب.

٣- الألغاز ٤- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك. ٥- تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد. ٦- شرح اللمحة البدرية. ٧- قطر الندى وبل الصدي. ٨- شرح قطر الندى وبل الصدى. ٩- شذور الذهب في معرفة كلام العرب. ١٠- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب. ١١- التذكرة في النحو. ١٢- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب. ١٣- الجامع الكبير في النحو. ١٤- إقامة الدليل على صحة التمثيل وفساد التأويل في الصرف. ١٥- نزهة الطرف في علم الصرف. ١٦- كفاية التعريف في علم الصرف

١٧- عمدة الطلاب في تحقيق تصريف ابن الحاجب.

في مجال اللغة والأدب :

١- شرح الشواهد الصغرى. ٢- شرح الشواهد الكبرى. ٣- شرح أبيات ابن الناظم.

٤- شرح قصيده بانت سعاد. ٥- الكواكب الدرية في مدح سيد البرية صلى الله عليه وسلم.

في مجال الدين:

١. مختصر الانتصاف من الكشاف.

٢. شرح الجامع الصغير.

٣. شوارد الملح وموارد المنح.

فهذه عن مؤلفات ابن هشام من خير أعماله وأكبر مجهوداته في خدمة العلم والأدب.

مذهب ابن هشام النحوي:

إن المدارس النحوية الأربعة أي " مدرسة البصرة النحوية" و " مدرسة الكوفة النحوية" و "مدرسة بغداد النحوية" و "مدرسة الأندلس النحوية" في نظر ابن هشام متساوية ، فلا فضل لمدرسة على أخرى في مسألة من المسائل إلا مارآها مصحوبة بالدليل والبرهان. وافق مدرسة البصرة في بعض المسائل ووافق مدرسة الكوفة في بعضها ، كما وافق مدرسة بغداد في بعضها الآخر. إنه إمام نحوي مجتهد ، فلا يتقيد برأي نحوي معين أيًا كانت شهرته دون غير، وإنما كان يتحرى الحق- مااستطاع - في آرائه واختياراته . وعلي هذا الأساس نراه يقدم رأي نحوي مثل أبي حاتم على نحوي آخر اشتهر في الدراسة النحوية مثل الكسائي والفراء.

ولذا كانت مؤلفاته النحوية تعتبر من الأمثله الجيدة للمؤلفات النحوية التي يتمثل فيها منهج التأليف في عصره. ولأهمية هذه الكتب أقبل عليها العلماء شارحين ومعلقين، كما أقبل عليها الطلاب باحثين ودارسين ، وظلت مدار النحو والنحويين إلى اليوم. (٢٦)

ويتضح من مؤلفات ابن هشام النحوية أنه قد تعرف على مؤلفات النحاة السابقين أو بعضها ثم مؤلفات من عاصره ، فاستفاد فاختار منها منهجا يراه صالحا ، عما يميل إلى الغموض مثلا ، أو اتخذ منهجا جديدا لم يسبقه إليه أحد من النحاة قبله.

منهجه في مغني اللبيب:

"مغني اللبيب عن كتب الأعاريب "من أهم مؤلفات ابن هشام واشتهر في مجال النحو بسبب تاليفه هـذا الكتـاب كمـا اشـتهر سـيبويه تـأليف كتابـه المشهور ومرد أهمية المغني ما يأتي :

١. أن المغني أحاط الموضوعات النحوية.

٢. احتواءه على شواهد لغوية كثيرة.

٣. دقة ابن هشام في تقديم المسائل النحوية ،وعرضه للخلافـات النحويـة فضـلا عـن الدقة في التعبير والأدب والتصوير.

تدريب الدراسين على الإعراب ، والعمـل مـن أجـل تكويـن ملكـة معربـة ،تقدر على فهم التراكيب العربيـة فتتضـح المعـاني- وتعـرف المدلـولات ويكـون ذلـك وسيلة لفهم كتاب ا لله الكريم وسنة نبيّة محمـد (صلـي ا لله عليـه وسـلم).[٢٧] "فإنهمـا الوسيلة إلى السعادة الأبديـة إلى تحصيـل المصـالح الدينيـة والدنيويـة وأصـل ذلـك علـم الإعراب" . [٢٨]

وقد شغل النحاة بالمغني من أول ظهوره إلى اليوم ، أقبلوا عليه شارحين ومعلقين وواضعين له الحواشي، فمنهم: [٢٩]

١. الشيخ جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ شـرح المغني وسماه. "تحفة الغريب في الكلام على مغني اللبيب "ووضع لـه حاشـية سماهـا "فتـح القريب في حواشي مغني اللبيب " ، وله شرح شواهد المغني.

٢. الشيخ محمد بن عبدالمجيد السامولي الشافعي السعودي ، وقد اختصر المغني وسماه "ديوان الأديب في مختصر مغني اللبيب".

٣. الشيخ محمد بن أبي بكر الدماميني ، فقد شرح المغني وسماه " تحفة الغريب بشـرح مغني اللبيب" ولأهمية المغني في النحو أنشد الدماميني، يمدحه قائلا:

ألا إنما مغني الـلبيب مصنف جليل به النحوي يحوي أمانيه

وما هو إلا جنة قد تزخرفت ألم تنظر الأبواب فيه ثمانية

٤. الشيخ ابو النجا بن خلف المصري المولود سنة ٨٤٩هـ ، وقد نظم المغني ثم شرح نظمه.

٥. الشيخ تقي الدين أبو العباس أحمد محمد الشمني المتوفي سنة ٨٧٢هـ ، شرح المغني وسماه "المصنف من الكلام على مغني ابن هشام".

أما الأسباب التي دفعت ابن هشام إلى تأليف المغني- بناء على تأملاته لكتب الإعرب - فقد ذكرها ثلاثة أمور:

١. كثرة التكرار ، فإنها لم توضع لإفادة القوانين الكلية ، بل الكلام على الصور الجزئية ، فتراهم يتكلمون على التركيب المعين بكلام ، ثم حيث جاءت نظائره أعادوا ذلك الكلام.

٢. إيراد ما لا يتعلق بالإعراب كالكلام في اشتقاق اسم أهو من السمة كما يقول الكوفيون ، أم من السمو كما يقول البصريون؟ والاحتجاج لكل من الفريقين ، وترجيح الراجح من القولين.

٣. إعراب الواضحات كالمبتدأ وخبره ، والفاعل ونائبه ، والجار والمجرور والعاطف والمعطوف ، وأكثرالناس استقصاء لذلك الحوفي عالم باللغة والتفسير .[٣٠]

منهجه:

نحدد حديثنا عن منهج ابن هشام في المغني في عدّة مباحث :

الأول: تبويبه للمغني:

تميز المغني عن كتب الإعراب ، لأنه اتخذ فيه طريقة خاصة في ترتيب المباحث وتنظيم الموضوعات النحوية. فقد حصر بحوثه في ثمانية ابواب: [٣١]

١. في تفسير المفردات و ذكر أحكامها.

٢. في تفسير الجمل و ذكر أقسامها وأحكامها.

٣. في تفسير ما يتردد بين المفردات والجمل وهو الظرف والجار والمجرور ، وذكر أحكامها.

٤. في ذكر أحكام يكثر دورها ويقبح بالمعرب جهلها.

٥. في ذكر الأوجه التي يدخل على المعرب الخلل من جهتها.

٦. في التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها.

٧. في كيفية الإعراب.

٨. في ذكر أمور كلية يتخرج عليها ما ينحصر من الصور الجزئية.

ويتضح من هذا التقسيم اثر ابتكارُ ابن هشام في التبويب ، لأنه لم ينهج فيه كعادته في شرحي: قطر الندى وشذور الذهب–في تقسيم الموضوعات إلى المرفوعات والمنصوبات والمجرورات ...، وإن كان الابتكار ليس كليا ، لأن بعض ماورد فيه سبقه إليه نحاة آخرون .(٣٢)

الثاني: **توضيح المشكلات النحوية:**

كما قدمنا ، أن المؤلف تأمل كتب الإعراب السابقة ، فوجد أن منها مسائل نحوية ينقصها الوضوح ، فحاول أن يوضحها أو يزيد عليها البيان حتى لا يستشكل الطلاب فلا نستطيع أن نسجل – هنا – جميع الأمثلة ، بل نختار منها للتوضيح مثالين:

١) في أوجه "أل" : قال منها: "أحدها: أن تكون اسما موصولا بمعنى الذي و فروعه ، وهي الداخلة على أسماء الفاعلين والمفعولين ، قيل: والصفات المشبهة ، وليس بشئ ، لأن الصفة المشبهة للثبوت فلا تؤول بالفعل ، ولهذا كانت الداخلة على اسم التفضيل ليست موصولة باتفاق ، وقيل: هي في الجميع حرف تعريف ، ولو صح ذلك منعت من إعمال اسمي الفاعل والمفعول ، كما منع منه (أي من إعمال اسمي الفاعل والمفعول) ، التصغير والوصف ، وقيل: موصول حرفي: وليس بشئ ، لأنها لا تؤول بالمصدر...(٣٣)

٢) في قول لبيد ابن ربيعة:

ألا كل شئ ما خلا الله باطل وكـل نعيـم لا محالـة زائـل

ذكر ابن هشـام أن "ما" في البيـت مصدريـة ، ودخولهـا يعين الفعليـة وموضـع "ماخلا" نصب ، ثم قال: "وزعم الجرمي والربعي والكسائي والفارس وابن جني انه قـد يجوز الجر على تقدير "ما" زائدة ، فإن قالوا ذلـك بالقيـاس ففاسـد ، لأن "مـا" لا تـزاد قبـل الجـار ، بـل بعـده ، نحـو قولـه تعـالى: (فبمـا رحمـة مـن الله لنـت لهـم ...) (آل عمران:١٥٩) وإن قالوه بالسماع فهو من الشذوذ بحيث لا يقاس عليه . [٣٤]

الثالث: **توضيح المسائل الإعرابية**

وإذا تأملنا تبويب ابن هشام للمغني نجد أن معظم أبوابه يتحـدث عـن الإعـراب وما يتعلق به. ولذلك فانه من السهل لنا إثبات منهجه في توضيحه المسائل الاعرابية.

وقد خصص ابن هشام بابا (الباب الرابع) سماه "ذكر أحكام يكثر دورها ويقبح بالمعرب جهلها وعدم معرفتها على وجهها". وقدم المؤلف في هذا الباب الأسـس العامـة التي ينبغي أن يسير عليها كل معرب ويضعها في ذهنه ومن مباحث الباب هو ما يعـرف به المبتدأ من الخبر ، ثم الاسم من الخبر ، ثم الفاعل من المفعول، وغيرها.

ففيما يعرف به المبتدأ من الخبر ذكر المؤلف أنه يجب الحكم بابتدائية المقـدم مـن الاسمين في ثلاثة أمور ، هي: أن يكونا معرفتين ، تسـاوت رتبتهمـا نحـو:" الله ربنـا " أو اختلفت نحو: "زيد الفاعل" والفاعل زيـد – هـذا هـو المشـهور" .. وأن يكونـا نكرتـين صالحتين للابتداء بهمـا نحـو: "أفضـل منـك ، أفضـل مـني" وأن يكونـا مختلفتـين تعريفـا وتنكيرا ، والأول هو المعرفـة "كزيـد قـائم" وأمـا إن كـان هـو النكـرة فـإن لم يكـن لـه مايسوغ الابتداء به فهو خبر اتفاقا نحو: "ذهب خاتمك" . [٣٥]

وفي المواضع التي يعود الضمير فيها على ما تأخر لفظا ورتبة ، ذكر ابـن هشـام انها سبعة أقسام ، منها "ان يكون الضمير مرفوعا بنعم أو بئس ولا يفسر إلا بالتمييز ، نحو: " نعم رجلا زيد ، وبئس رجلا عمرو"..." وأن يكون مخبرا عنه فيفسره خـبره نحـو قوله تعالى في سورة الأنعام: ٢٩، (إن هي إلا حياتنا الدنيا) ..."[٣٦].

والباب الخامس سماه: "ذكر الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب من جهتها"وهي عشرة . قدم المؤلف في هذا الباب الأسس الأخرى ،يعرف فيها الدارسون الجهات التي ينبغي أن يراعوها في الإعراب.

ففي الجهة الأولى – مثلا – ذكر أهمية المعنى في الإعراب ، قال فيها: "وأول واجب على المعرب أن يفهم معنى ما يعربه ، ولهذا لا يجوز إعراب فواتح السور على القول بأنها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه" . (٣٧)

ثم مثل حيث قال: ولقد حلى لي أن بعض مشائخ الإقراء أعرب لتلميذ له بيت "المفصل":

لايبعد الله التلبيب وال غارات إذ قال الخميس : نعم

فقال: "نعم" حرف جواب ، ثم طلبا محل الشاهد في البيت ،فلم يجدا ، فظهر لي حينئذ حسن لغة كنانة في نعم الجوابيّة ونعم بكسر العين ، وإنما نعم هنا واحد الأنعام، وهي خبر لمحذوف أي هذه نعم ، وهو محل الشاهد" . (٣٨)

وفي الجهة الثانية ذكر أهمية صحة الصناعة مع انصراف ذهن المعرب إلى صحة المعنى. قال بعض المعربين في قوله تعالى في سورة النجم: ٥٠-٥٢ (وأنه أهلك عادا الأولى وثمود فما أبقى) إن ثمود مفعول مقدم ، فقال: وهذا ممتنع لأن لـ "ما" النافية الصدر ، فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، وإنما هو معطوف على "عادا" أو هو بتقدير : وأهلك ثمودا... (٣٩)

و في الجهة الثالثة قال: "أن يخرج المعرب على ما لم يثبت في العربية ، وذلك إنما يقع عن جهل أو غفلة ". (٤٠) ومن ذلك قول بعضهم في قوله تعالى في سورة البقرة:٢٤٦(وما لنا أن نقاتل في سبيل الله) إن الأصل "وما لنا ألاّ نقاتل أي مالنا وترك القتال كما تقول:" ما لك وزيدا" وذكر أنه لم يثبت في العربية ، واو المفعول معه". (٤١)

تلك هي الأمثلة التي سردها المؤلف قصدا لتوضيح المسائل الإعرابية وهناك أمثلة أخرى أتى بها لتدريب الطلاب ، وتوضيح المسائل الإعرابية ، إلا أنه لم يخص لها

بابا معيّنا بل أتى بها متفرقة في الأبواب المختلفة. وأنه يراعي الأحوال فلا يأتي بها حشوا من غير تمهيد أو علاقة سابقة فعند ما يفرغ من مسألة أو قاعدة ـ على ما تتبعته ـ يحاول أن يقربها إلى الأذهان ويتبعها ياتيان الأمثلة التوضيحة.

ففي الباب الأول مثلا لما فرغ من شرح "ماذا" وما يتعلق بها عقد فصلا خاصا قال فيه: "هذا فصل عقدته للتدريب في "ما" .[٤٢]

وفي الباب الخامس بعد أن ذكر قاعدة ، لم يمثل لها وأنما عقبها مباشرة بمسائل للتمرين ، قال فيها: "الجهة الخامسة: أن يترك بعض مسائل من ذلك ليتمرن لها الطلاب مرتبة على الأبواب فبدأ الأبواب. بالمبتدأ ، ثم باب إعراب الفعل ، ثم الموصول ، ثم التوابع ، ثم حرف الجر ، ثم باب في مسائل مفردة ، وأفرد كل باب بمسائل"[٤٣].

وفي خاتمة الباب الخامس أيضا بعد أن تحدث عن الحذف وشروطه أو ما يتعلق به أفرد فصلا للتمرين في الحذف سماه : "ذكر أماكن من الحذف يتمرن بها المعرب": وفيه عدة أبواب" . [٤٤]

والأمر الملحوظ في هذه التمرينات كلها أن المؤلف أفاض شرح المسائل بالشواهد القرآنية ثم بالشواهد الأخرى . وهذا يدل على قوة علاقة بالقرآن الكريم في حياته ، ووعيه المستمر بما فيه . ولايكتفي بإيراد الأمثلة للتمرين بل خصص بابا (الباب السابع) – سماه كيفية الإعراب – يكون مفتاحا للمبتدئين في الإعراب.

الرابع: تصحيح بعض أغلاط المعربين:

إن ابن هشام عندما ذكر أنه تتبع بعض أغلاط المعربين وغيرهم فنبّه وأصلحها فلم يختلف ، وإنه واف لما خططه في مقدمة كتابه.[٤٥] وقد اتخذ بابا واحدا (الباب السادس) من الكتاب نبه فيه المعربين سماه "باب التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين والصواب خلافها".

وكما ذكرنا أن ابن هشام شخصية نافذة واعية ، لا يكتفي بما سجله غيره من النحاة بل حاول أن يتتبعه ويلقي عليه ضوءاً وفق منهجه الخاص ولا سيما في مجال الإعراب الذي هو أهم وظيفة للنحو ، فمثلا : في الباب السادس ذكر المؤلف عشرين

موضعا ، رأى أن ما اشتهر بين المعربين فيها مخالف الصواب ، نحو قولهم في "بل" إنها حرف إضراب ، فقال" والصواب حرف استدراك وإضراب ، فإنها بعد النفي والنهي بمنزلة لكن سواء وقولهم في نحو " ائتني أكرمك" إن الفعل مجزوم في جواب الأمر ، قال: "والصحيح أنه جواب لشرط مقدر ، وقد يكون إنما أرادوا تقريب المسألة على المتعلمين" . (٤٦)

الخامس: محاوله تذليل النحو:

وقد بين ابن هشام أن قصده في هذا الكتاب هو تذليل النحو، وتقريبه إلى الأذهان ، والبعد به عن الاضطراب الفكري الذي يترتب على اختلاط مسائل النحو بعضها ببعض ، خدمة للدارسين والناشئين ، وفتحا لابواب النحو أمامهم . وقد أشار إلى ذلك في المقدمة : ولما تم هذا التصنيف على الوجه الذي قصدته ، وتيسر فيه من لطائف المعارف ما أردته واعتمدته سميته " مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" وخطابي به لمن ابتدأ في تعليم الإعراب ولمن استمسك منه بأوثق الأسباب ومن الله أستمد الصواب ...". (٤٧) فنذكر مثالين لما أشار إليه المؤلف في قول الفرزدق:

وكل رفيقي كل رحل وإن ما تعاطى القنا قوما هما أخوان

قال: "وهذا البيت من المشكلات لفظا و معنى وإعرابا ، فلنشرح قوله: "كل رحل" كل هذه زائدة ، ورحل: بالحاء المهملة ، وتعاطى: أصله تعاطيا فحذف لامه للضرورة أو الألف من "تعاطى" لام الفعل ، وواحد الضمير لأن الرفيقين ليست باثنين معينين بل هما كثير كقوله تعالى في سورة الحجرات: ٩ ، ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾ ثم حمل على اللفظ ، إذ قال: "هما أخوان" كما قيل: (فأصلحوا بينهما) وجملة" هما أخوان" خبر كل . وقوله "قوما" إما بدل من القنا لأن قومهما من سببهما ، إذ معناها تقاومهما ، فحذفت الزائد ، فهو بدل اشتمال أو مفعول لأجله ، أى تعاطيا القنا لمقاومة كل منهما الآخر ، أو مفعول مطلق من باب (صنع الله) (النمل: ٨٨) لأن تعاطى القنا يدل على تقاومهما". وقال: "ومعنى البيت أن كل الرفقاء في السفر إذا استقروا رفيقين فهما كالأخوين لاجتماعهما في السفر والصحبة ، وإن تعاطى كل واحد منهما مطالبة الأخر." (٤٨)

وفي وجه إعراب "ما" في قوله تعالى في سورة البقرة:٨٨ (فقليلا ما يؤمنون) أورد المؤلف ثلاث احتمالات لإعرابها:

الأوّل:الزيادة فهي، عندئذ إما لمجرد تقوية الكلام كما في قوله تعالى من سورة آل عمران: ١٥٩ ، (فبما رحمة من الله لنت لهم) فتكون حرفا باتفاق و"قليلا" في معنى النفي ، وإما لإفادة التقليل كما في "أكلت أكلا لما".

والثاني: النفي ، و "قليلا" : نعت لمصدر محذوف أو لظرف محذوف أي إيمانا قليلا أو زمنا.

والثالث:أن تكون مصدريه وهي وصلتها فاعل بقليل ،وقليلا حال معمول لمحذوف دل عليه المعنى أى لعنهم الله" (٤٩).

فذلك هو منهج ابن هشام في المغني وما يلي بعض التأملات لمنهجه فيه:

الأول: أن المؤلف– في الباب الأول– قدم مادة بحثه على ترتيب أحرف الهجاء دون مراعاة بقية الحروف فمثلا أنه أورد ، أما بعد ال ، وألا إلا وإلى بعد أو ، وإذ إذما و إذا بعد إي و أي و أيّ ، وسواء بعد سيّ ، وعسى وعل وعند بعد عوض وكم وكأي وكذا وكان وكل وكلا وكلتا بعد كى ، ولم ولما ولن بعد لو ولولا ولوما ولعل ولكن بعد لن وليمه ، ومع ومتى و مذ بعد من ومن و مهما، ثم أنه لم يرتبها حسب عددالأحرف بل أتى بالرباعي قبل الثنائي والثلاثي ويخلط بينهما.

فلو راعى – في الترتيب– الحروف جميعا حسب حروف الهجاء ، ثم صنفها حسب عدد الأحرف . لكان أكثر توفيقا و فنيا و منهجيا . (٥٠)

الثاني : أن المؤلف في المغني لم يقتصر بحثه على المسائل النحوية ، بل إنه تناول أيضا بعض المسائل الأخرى كالأدب والبلاغة والتفسير ، وقد بين أن إيراده هذه المسائل ليس لتقليد من سبقه من النحاة ، فقال فيه " ولم أذكر بعض ذلك في كتابي جريا على عادتهم ، وأنشد بيت دريد بن الصمة متمثلا:

وهل انا إلا من غريبة إن غنوت عويب وإن ترشد عمرية أرشد

بل لأني وضعت الكتاب لإفادة متعاطي التفسير والعربية جميعا" (٥١) وعلق الشيخ محمد الطنطاوي على ذلك قائلا: " يريد (ابن هشام) ان ما ذكره ليس ابتداء لغيره حتي يحتاج إلى الاعتذار بانشاد البيت وإنما قصدة أن المغني يجمع بين الرايين " وأضاف قائلا " ويروى أنه قيل لابن هشام : هلا فسرت القرآن أو أعربته ،فقال: أغناني المغني". (٥٢)

الثالث: أنه في هذا الكتاب سجل لنا أثرا ملحوظا لم نجده في مؤلفاته الأخرى ، وذلك أنه بين التاريخ الذي شرع فيه تأليف الكتاب فقال: "وقد كنت في عام تسعة وأربعين وسبعمائة انشأت بمكة- زادها الله شرفا- كتابا في ذلك، منورا من أرجاء قواعده كل حالك ، ثم أنني أصبت به ، وبغيره في منصرفي إلى مصر ، ولما منّ الله تعالى على في عام ستة وخمسين بمعاودة حرم الله ، والمجاورة في خير بلاد الله شمرت عن ساعد الاجتهاد ثانيا ، واستأنفت العمل لاكسلا ، ولا متوانيا" . (٥٣)

الرابع: أنه أكثر الاستطراد والتفريعات في المغني، وأهم من ذلك أنه ألّف كتابه لأهل زمانه ، وهم كانوا أصبر منا على العلم وما كان يعيبه" المغني" عندهم أنه طويل النفس، ولا أنه كثير الاستطراد. وكما أنهم كانوا أحفظ منا لكتاب الله سبحانه وتعالى... (٥٤).

ويتضح من دراستنا هذه :

١. أن ابن هشام وإن كان قد وصل إلى درجة فائقة في الدارسة النحوية – لم يقص عن استفادته من النحاة الآخرين في تكوين شخصيته ومذهبه ، وطريقته في معالجة الآراء ومنهجه في التأليف.

٢. أنه أكثر من الاستشهاد بالقرآن الكريم وحاول تقديم الشواهد القرآنية في إثبات القواعد أو إبطالها على الشواهد الأخرى.

٣. أنه حاول تسهيل النحو ويظهر ذلك في سهولة عبارته ،ووضوح أسلوبه ، ودقة تعبيره و إيجازه في القول ، والابتعاد عن المسائل الخلافية الكثيفة ، وكل ذلك يهدف إلى خدمة الدراسين والطالبين لعلم النحو.

٤. وأنه في المغني أتى بمنهج مبتكر جديد لم يسبقه إليه أحد من النحاة قبله.

الهوامش

١- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: للشيخ شهاب الدين احمد بن حجر العسقلاني ؛ تحقيق: محمد سيد جاد الحق ، دار الكتب الحديثة ص ج: ٢، ص ٤١٤.

- و معجم المؤلفين: لعمر رضا كحالة ، دار إحياء التراث العربي بيروت:١٦٣/٢
- ودائرة المعارف الإسلامية صدرها باللغة العربية ،احمد الشنتاوي وإبراهيم زكي حفر رشيد وعبدالحميد يونس ، دار الفكر :٢٩٥/١.
- والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، لمحمد بن على الشوكاني ، دار المعرفة- بيروت: ٤١،٤٠/١.
- و شذرات الذهب في اخبار من ذهب: لأبي الفلاح عبدالحي بن العماد الحنبلي ، دار المسيرة ، بيروت: ١٩١/٦.
- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات: للعلامة الخوانساري الاصبهاني ، تحقيق : اسد الله إسماعيليان ، تهران- ١٣٥/٥.

٢- مقدمة ابن خلدون: للعلامة ابن خلدون: ٥٣٢/٢.

٣-الدرر الكامنة: ٤١٥/٢.

٤- الدرر الكامنة: ٤١٧/٢.

٥- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري الأتابكي ٣٣٦/١٠.

٦- الدرر الكامنة: ٤١٦/٢ ، و روضات الجنات: ١٣٧/٥.

٧- الدرر الكامنة: ٤١٦/٢ ، ٤١٧ ، و روضات الجنات : ١٣٩/٥ و بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: للعلامة جلال الدين عبدالرحمن السيوطي: ٦٩/٢.

٨- اعتراض الشرط على الشرط: لابن هشام الأنصاري ، تحقيق: الدكتور عبدالفتاح أحمد الحموز ، ص٧.

٩- اعتراض الشرط على الشرط: ص٧.

١٠-الدرر الكامنة ٤١٦،٤١٥/٢.

١١-معاني حروف المعاني عند ابن هشام والرماني: لعباس الزجمان: ص ٢٥.

١٢-الدرر الكامنة: ٣/٢٠،٢١.

١٣-شذرات الذهب: ٦/١٤٨-١٤٩، والنجوم الزاهرة: ١٠/١٤٥، والبدر الطالع: ١/٤٠١.

١٤-الدرر الكامنة : ٣/٢٥٤،٢٥٥.

١٥-شذرات الذهب: ٦/١٤٥.

١٦-بغية الوعاة : ٣/٦٩.

١٧-نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : للشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني ، تحقيق: الدكتور إحسان عباس: ٢/٥٣٥.

١٨-غاية النهاية في طبقات القراء : لشمس الدين ابن الخير محمد بن محمد الجزري ٢/٢٥٦.

١٩-الدرر الكامنة: ٣/٤٠١،وبغية الوعاة: ١/٢٠.

٢٠-شذرات الذهب: ٦/١٠٥،١٠٦.

٢١-الدرر الكامنة: ١/٦٢، و بغية الوعاة: ١/٤٢٧.

٢٢-بغية الوعاة : ١/٤٢٧،وشذرات الذهب: ٧/١٣.

٢٣-شذرات الذهب: ٦/٣٣٣.

٢٤-شذرات الذهب: ٦/٢٩٢.

٢٥-انحصرنا لمؤلفات ابن هشام على الكتب التالية: بغية الوعاة ، دائرة المعارف الإسلامية ، الدرر الكامنة وكشف الظنون.

٢٦-المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة : للدكتور عبدالعال سالم مكرم : ص ٣٨٣،٣٨٤.

٢٧-المدرسة النحوية: ص ٢٧٤.

٢٨-مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: لابن هشام ، تحقيق مازن المبارك و محمد على حمد الله ، و مراجعة سعيد الأفغاني : ١/١٢.

٢٩-كشف الظنون : ٢/١٧٥١-١٧٥٤.

٣٠-المغني : ١/١٤-١٦.

٣١-المغني: ١/١٣،١٤.

٣٢-دروس في المذاهب النحوية: للدكتور عبده الراجحي: ٢٥٢ والمغني: ١/٦.

٣٣-المغني : ١/٧١.

٣٤-المغني : ١٧٩/١.

٣٥-المغني: ٥٨٨/٢.

٣٦-المغني : ٦٢٥/٢ ، ٦٢٦.

٣٧-المغني:٦٨٤/٦

٣٨-المغني : ٦٨٤/٢.

٣٩-المغني : ٦٩٨/٢.

٤٠-المغني : ٧٠٦/٢.

٤١-المغني :٧٠٨/٢.

٤٢-المغني :٤١٤/١.

٤٣-المغني :٧٢٢/٢-٧٤١.

٤٤-المغني :٨١١/٢-٨٣٥.

٤٥-المغني ٨٥٤/٦

٤٦-المغني :١٢/١.

٤٧-المغني : ١٦/١.

٤٨-المغني :٢٥٩/١،٢٦٠.

٤٩-المغني :٤١٦/١،٤١٧.

٥٠-معاني حروف المعاني عند ابن هشام والرماني ' لعباس الزجمان ص ٣٤-٣٦.

٥١-المغني: ٨٥٣/٢.

٥٢-نشأة النحو و تاريخ أشهر النحاة: للشيخ محمد الطنطاوي تعليق عبدالعظيم الشناوي و محمد عبدالرحمن الكردي: ص ٢٣٧.

٥٣-المغني : ١٢/١.

٥٤-المغني : ٧/١.